الفصل

٨

# ائتلاف من النقاد

فى عام ١٩٣٠ أعلن ألبيرت ويجام - الداعية اليوجينى - أمام جمع من الناس بالمتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى "أن الحضارة تجعل العالم مكانا آمنا للأغبياء". ربما كان يوجينيو الخط الأم قد انشغلوا طويلا بمعدل الولادة التفاضلى، أو بتدهور الذكاء القومى، لكن ادراكهم قد تعمق كثيرا فى فترة الكساد الاقتصادى الكبير.

قدم اليوجينيون فى الثلاثينات شواهد احصائية على أن مؤسسات الصحة العقلية فى أمريكا ستؤوى قريبا أكثر من نصف مليون فرد: واحدا من بين كل ٢٥٠ شخصا فى البلاد. قيل إن عدد العائلات التى ترسل طفلا إلى المصحات العقلية يزيد عن ضعف عدد العائلات التى ترسل واحدا إلى الجامعة. لكنا قد لانجد بين الاحصائيات الأمريكية مايبارى فى الأثر تلك الشواهد التى قدمها التقرير الذى أصدرته عام ١٩٢٩ اللجنةُ المشتركة للقصور الذهنى، التى شكلتها الحكومة البريطانية، وذلك بعد مسح دام خمس سنوات. يقول ما اعتبرته اللجنة تقديرا محافظا إن هناك مالايقل عن ٣٠٠ ألف معوق ذهنيا في انجلترا وويلز، وهذا يعنى أن نسبة القصور الذهنى قد تضاعفت منذ عام ١٩٠٨ عندما أُجرى المسح السابق. ثمة مايشير إلى أن ثلاثة أرباع القصور الذهنى يأتى عن عائلات تحت المتوسط فى الدخل والوضع الاجتماعى. شملت هذه العائلات، على حد تعبير تقرير اللجنة المشتركة، نسبة أعلى بكثير من "مختلى العقل" ومرضى الصرع، والملقين، والمجرمين (لاسيما معتادى الاجرام)، والعاطلين، وسكان الأحياء الفقيرة المزدحمة، والعاهرات، والسكّيرين، وغيرهم من العاجزين اجتماعيا"، مقارنة بالعائلات التى تخلو من المعوقين ذهنيا. ولقد شكل هؤلاء - كما يقول التقرير - "جماعة معضلة من الناحية الأخلاقية"، وهم يؤلفون نحو ١٠٪ من المجتمع الانجليزى والويلزى.

تضمن تقريرُ اللجنة تحذيراتٍ من أن تزايد عدد المعوقين ذهنيا لا يأتى بالضرورة عن نسبة أعلى تولد من هؤلاء التعساء، ولكنه بلا شك يعكس - من بين مايعكس - حقيقة أن نسبة من الناس أعلى تحيا إلى سن البلوغ بسبب تحسن خدمات الصحة العمومية. لكن ماذا ع وسلّطت عليه الأضواء كانت هى النتائج الرئيسية للتقرير، لا التحذيرات. فى رزانة أخبر نيفيل تشامبرلين (رئيس الوزراء فيما بعد) مجلس العموم أن تضاعف نسبة المعوقين "لابد أن يسبب انزعاجا خطيرا وتخوفا لدى كل من يهمه مستقبل هذا الشعب، جسديا وعقليا".

رأى يوجينيو الخط الأم أن الوضع الاقتصادى إنما يرجع إلى التدهور البيولوجى، هو نتيجة معدل الولادة التفاضلى. أصروا على أن العاطلين - بسبب قَدَرهم البيولوجى - لابد أن يكونوا متخلفين ذهنيا، قصيرى النظر، غير مسئولين، تافهين. فى عام ١٩٣١ نشرت مجلة كوزموبوليتان أن الرئيس هيربرت هوفر يرى أن كل الأطفال المتخلفين يعانون من سوء التغذية. وكان على البيت الأبيض أن يصدر تصحيحا: فهذا التصريح لايمثل وجهة نظر الرئيس، وهو بالطبع يتنافى مع "كل المعرفة العلمية عن الوراثة". وجُه اليوجينيون البريطان الاهتمام إلى كتاب "الوراثة وجماعة المعضلة الأخلاقية"، وهذه دراسة عن فقراء الطرف الجنوبى للندن نشرت عام ١٩٣٣، بعد ربع قرن من البحث، وقد أنجزها أ. ج. ليدبيتر، الذى عمل طويلا فى مجال رعاية الفقراء بهذه المنطقة. كانت هذه الدراسة فى أساسها خلاصة وافية لبيانات الانسان، واقترحت فى النهاية أن الفقراء يشكلون طبقة بيولوجية خاصة بهم تتميز بدرجة عالية من التخلف، تبقى وتستديم بسبب زواجهم فيما بينهم. أكد ليد بيتر "أن الأفضل فى الحضارة هو الأفضل بيولوجيا، وعلى هذا فإن المطلوب اليوم هو أن نهتم بمشاكل التكاثر وتنظيمه".

أثار الكساد الاقتصادى نوبة أخرى قوية من الاهتمام بحجج يوجينيا الخط الأم التى تعضد التعقيم. قامت الجمعية اليوجينية - وهكذا أصبح اسم جمعية الثقافة اليوجينية منذ عام ١٩٢٦ - قامت بطباعة عشرة آلاف نسخة من كتيب يشرح مزايا التعقيم، وقد كان الطلب على الكتيب كبيرا فطُبع منه عشرة آلاف نسخة أخرى. خصص محررُ مجلة "نيتشر" العلمية المحترمة مساحة في مجلته لقضايا التعقيم، تضمنت رأيا لأحد اليوجينيين البريطان اقترح فيه "التعقيم الجبرى كعقوبة للآباء الذين يلجأون إلى معونة الدولة لإعالة أبنائهم". وفى الولايات المتحدة تحدث الناس عن اجراءات مشابهة تجاه من يعيشون على الإعانات لفترة تزيد عن حد

معين. ثمة استفتاء أجرته مجلة "فورتشون" عام ١٩٣٧ بيَّن أن ٣٦٪ من الأمريكان يعضدون التعقيم الجبرى للمجرمين بالفطرة، وأن ٦٦٪ منهم يساندون تعقيم المعوقين عقليا. قال بروفسور أ. أ. هوتون، زستاذ الانثوبولوجيا بجامعة هارفارد، إن على الدولة أن تجرى بعض "التنظيف البيولوجى".

أصر "عمال النظافة" على جانبى الأطلنطى على أن التعقيم أمر انسانى، بل وعملى أيضا. ولإثبات هذا أورد تقرير "التعقيم لتحسين البشر"، وهذا تقرير نشره عام ١٩٢٩ اليوجينيان الأمريكيان عزرا جوسنى وبول بوبنو، عن تاريخ هذه العملية في كاليفورنيا. تصدرت كاليفورنيا الأمة منذ أوائل القرن في مجال التعقيم، وكان رصيدها حتى عام ١٩٢٩ هو ٦٢٥٥ عملية، نحو ضعف ماتم فى كل الولايات الأخرى مجتمعة. يقول جوسنى وبوبنو إن قرار التعقيم يتم فى روية بناء على رأى مجموعة من الأطباء ورجال الاجتماع والمتخصصين فى الصحة العقلية، بعد استشارة العائلة، وكانت العمليات (قطع الوعاء الناقل أو ربط قناة فالوب) تتم بصورة دقيقة وبأقل قدر من التلوث وأقل عدد من الضحايا. ولقد رحب الكثيرون من المرضى بإجراء العملية - أو على الأقل رحبت عائلاتهم بها. أعرب عدد كبير من النساء بالذات عن امتنانهن الجزيل، بل و "كان تعبير الكثير منهن مشجيا، ووددن لو تمتعت بنفس الوقاية غيرهن ممن يعانين من الحمل مع الأمراض النفسية".

حظى التعقيم، وقد ساعده وشجعه الكساد، بتعضيد متنوع الأشكال بالولايات المتحدة وبريطانيا، تعضيد مضى أبعد بكثير من دوائر اليوجينيين. تراوح مؤيدوه مابين أساتذة الجامعة ونظار المدارس الأولية، من عضوات النادى إلى المشتغلين بالصحة العقلية، من اتحاد الإصلاح النسائى لحزب المحافظين البريطانى إلى تحالف الناخبات بنيوجرسى، من اللقاءات الخاصة إلى مؤتمر البيت الأبيض عام ١٩٣٠ عن الأطفال والصحة، من الأساقفة الأنجليكان إلى اتحاد كنائس الحركة الدينية الإصلاحية بنيوآرك، من اللورد هوردر طبيب الملك جورج السادس وأمير ويلز إلى هـ. ل. مينكين الذى اقترح أن تدفع الحكومة الفيدرالية ألف دولار لكل "أمريكى بالغ" يقبل أن يُعقم طوعا. سنَّت الحكومات قوانين للتعقيم اليوجينى فى السويد والدانيمرك وفنلنده، بل وحتى فى إحدى مقاطعات سويسرة. وعلى عام ١٩٣٣ قدر بول بوبنو فى فخر أن عدد من يسرى عليهم قوانين التعقيم قد بلغ مايقرب من ١٥٠ مليونا من البشر.

أما فى بريطانيا فقد كان التعقيم أيًّا كان سببه يُعتبر مخالفا للقانون. لم يكن هناك قانون

يمنعه صراحة، لكن ثمة قوانين عديدة تشير ضمنا إلى أن التعقيم اليوجينى للقاصرين ذهنيا هو أمر غير شرعى، مثل قانون ١٨٦١ الخاص بالتعدى على الآخرين، الذى يحرم ايذاء الغير بضرر جسدى جسيم ويعتبر ذلك جريمة. صحيح أن التعقيم قد لايشكل مثل هذا الضرر، لكن الأطباء البريطان كانوا يعزفون عن اجراء العملية حتى للمتطوعين، دعك من اجرائها لمن لايستطيع بحكم قصوره الذهنى أن يتخذ قرارا قانونيا أو غير قانونى.

أما فى الولايات المتحدة وبرغم قضية باك ضد بل، فقد كان معظم المبتلين ذهنيا في مأمن من مبضع الجراح. تحدث مينكين عن التعقيم الطوعى، لأنه أدرك صوابا أن "ميثاق الحقوق يحمى الفلاح الأجير - الذى قد لايجده العالِم إنسانا - كما يحمى رئيس جامعة هارفارد... فهو لن يُسجن إلا إذا ارتكب فعلا صريحا يحرمه القانون، وهو لن يُخصى إلا إذا كان فى بقائه كذكر مايهدد المجتمع تهديدا "جليا مؤكدا"". كان مضمون حكم المحكمة هو جواز التعقيم الجبرى فقط على نزلاء المصحات العقلية للولايات، الذين يثبت أن عجزهم وراثىٌ. كان الطريق ضيقا، لكن إشارة المرور ظلت خضراء. فبحلول عام ١٩٣٥ كان ثمة أربع ولايات قد أجازت قوانين التعقيم، كما قُدمت للهيئة التشريعية فى سبع ولايات أخرى مشاريع قوانين لنفس الغرض. تراوح معدل التعقيم القومى السنوى خلال العشرينات من هذا القرن مابين اثنين وأربعة لكل مائة ألف، ليرتفع فى أواسط الثلاثينات إلى خمسة عشر، ثم يصل إلى عشرين على نهاية العقد. بلغ العدد الكلى لمن عُقموا على مستوى الدولة حتى عام ١٩٤١ نحو ٣٦ ألف شخص. وفضلا عن ذلك فقد كان التعقيم يتم بالفعل فى الفترة من ١٩٣٢ حتى ١٩٤١ - بغض النظر عن إجازته قانونا - فى عدد من الولايات يزيد كثيرا عن ذى قبل: بلغ نصيب كاليفورنيا - وإن ظَلَّ الأكبر - الثلثَ من بين المعقمين، وتلتها في الترتيب ولاية فرجينيا - حيث عُرضت قضية باك ضد بل - التى فازت بالسَّبْع.

يتذكر هوارد هيل العضو السابق بمجلس المراقبين لمقاطعة مونتجومرى، فرجينيا، أن سلطات التعقيم بالولاية قد أغارت فى الثلاثينات على عائلات كاملة من سكان الجبال "غير الملائمين". كان لهيل فى ذلك الوقت محلا صغيرا لبيع الحلوى يخدم هذه العائلات. يقول هيل "أُصيب كل من يتكسب عيشه هناك عندئذ بالهلع خشية التعقيم، ففروا يختبئون بالجبال، ليتعقبهم العمدة ورجاله... ظلوا يطاردونهم حتى جبل براش، عندما قبضوا عليهم وشحنوهم فى عربتين، ليعود بهم العمدة إلى ستونتون (مستشفى ويسترن ستيت) حيث يمكن تعقيمهم".

أضاف هيل "كان الناس على العموم يؤيدون مايحدث. هم لايتحملون أن يولد آخرون بهذا العالم يقاسمونهم الخير".

كان تعقيم الذكور فى مستعمرة الولاية بلينشبرج يتم كل ثلاثاء، وكان تعقيم النساء يجرى أيام الخميس. لكن كان هناك من يرى أن الولاية لاتعقم إلا عددا قليلا، مثل الدكتور جوزيف س. ده جارنيت، الذى كان لزمان طويل صوتا قويا فى اليوجينيا، وشخصا ذا تأثير قوى فى برامج التعقيم اليوجينى. حث الهيئة التشريعية فى عام ١٩٣٤ أن توسع من قانون التعقيم. قال "إن الألمان يهزموننا فى نفس ملعبنا".

فى عام ١٩٣٣ أعلنت وزارة أدولف هتلر قانوناً للتعقيم اليوجينى. مضى القانون الألمانى لأبعد بكثير من القوانين الأمريكية، إذ كان إلزاميا لايُطبق فقط على نزلاء المصحات العقلية وإنما على كل من يعانى من قصور وراثى مزعوم: ضعف العقل، انفصام الشخصية، الصرع، العمى، الإدمان الشديد للمخدرات أو الكحولات، التشوهات الجسدية التى تعوق الحركة بشكل خطير، أو التى تبدو كريهة للغاية. قال مستشار وزير داخلية الرايخ، الذى صاغ القانون، إنه مبادرة فى غاية الأهمية بالنسبة للصحة العمومية. صرح لعدد من المراسلين الأجانب في برلين بقوله "إننا نريد أن نمنع... تسمم دم السلالة بأكمله. إننا نتجاوز حب الجار، إننا نبسطه إلى أجيال المستقبل، وهناك تكمن الأخلاقية العليا للقانون وتبريراته". عندما أصبح القانون نافذا فى أول يناير ١٩٣٤ كان على الأطباء أن يبلغوا عن كل من هو "غير ملائم"، إلى المئات من محاكم الصحة الوراثية التى أنشئت لتقرر مستقبل النسل الألمانى. كان من الممكن أن يُطعن في الأحكام أمام محكمة يوجينية عليا، وأحكام هذه نهائية يلزم تنفيذها، بالقوة إذا لزم الأمر. وفى خلال سنوات ثلاث كانت السلطات الألمانية قد عقمت عددا يتراوح مابين ٢٠٠ ألف و ٢٥٠ ألف شخص، نحو عشرة أضعاف العدد الذى عُقم فى أمريكا خلال الثلاثين سنة السابقة. ولقد وُصف نحو نصف هؤلاء بأنهم "ضعاف العقول".

كان التعقيم بالطبع هو مجرد بداية للبرنامج اليوجينى النازى من أجل تحسين "السلالة" الألمانية. منحت الحكومة قروضا للأزواج المتميزين بيولوجيا والذين يفترض أن يكون فى نسلهم فائدة "للشعب"، على أن يخصم ٢٥٪ من قيمة القرض عند ولادة كل طفل. خصصت بعض المدن الألمانية إعانات خاصة تُمنح عند ولادة الطفل الثالث أو الرابع للعائلات الأفضل. حث

هاينريخ هملر أعضاء فرقة حماة الأمن (إس إس) أن ينجبوا أكبر عدد من الأطفال من أفضل نساء السلالة حتى يمكن بناء الصفوة الآرية. وفى عام ١٩٣٦ أنشأ "دور الحياة" حيث تمكث الأمهات من فرقة حماة الأمن ـ المتزوجات وغير المتزوجات ـ ليتلقين أفضل عناية طبية خلال إقامتهن.

مضى برنامج النازى لفترة مستقلا عن سياسات النظام المعادية للسامية. لم تتيمز القيادة اليوجينية الألمانية قبل عام ١٩٣٣ بمعاداتها الواضحة للسامية، بل الحق أن المجلة اليوجينية الألمانية الرئيسية قبل عام ١٩٣٣ كانت تفترض أن يهود ألمانيا هم بالفعل من الجنس الآرى. كتب جاكوب هـ. لاندمان، اليهودى المعارض للتعقيم، فى عدد عام ١٩٣٦ من مجلة "سيرفاى جرافيك" يقول إن البرنامج الألمانى "لم يُقصد به القضاء على غير الآريين، وإنما غرضه تحسين الأرومة الألمانية القومية"، واستمر يقول "لم يكن من بين مجالات هذا البرنامج تعقيم الساميين أو غيرهم من المجاميع غير السامية". وليس ثمة شواهد على أن حُرمة القانون قد انتُهكت لتعقيم المرضى لأنهم ليسوا من الجنس الآرى.

وبتحول هتلر إلى معاداة اليهود علنا، اندمجت سياسة النازى العنصرية بالسياسة اليوجينية. أعلن النظام قوانين الزواج اليوجينية التى تحرم الزواج على المصابين بالأمراض العقلية أو بعض الأمراض المعدية، أو بين من ينتمون إلى "سلالات" مختلفة. وقد سُمح باستثناء المختلين عقليا من هذا التحريم إذا ثبت تعقيمهم. ثم صدرت قوانين نورمبرج عام ١٩٣٥، ولم تعد ثمة استثناءات لتحريم الزواج بين "اليهود" و "الألمان". وفى عام ١٩٣٩ تحرك الرايخ الثالث إلى أبعد من التعقيم ليدشن القتل الرحيم فى طبقات معينة من مرضى العقل أو المعوقين ذهنيا الموجودين فى المصحات العقلية الألمانية. وكان من بين هذه الطبقات اليهود جميعا، بغض النظر عن صحتهم العقلية. تقرر فى النهاية تنفيذ القتل الرحيم على نحو سبعين ألف مريض، قُتلت الدفعات الأولى منهم رميا بالرصاص، أما الباقى فقد كانوا يساقون إلى حجرات تبدو كحمامات للاغتسال، حيث يُقتلون بالغازات السامة.

فى السنين الأولى لحكم النازى، لم يكن لمعظم يوجينيى الخط الأم بالولايات المتحدة وبريطانيا أن يعلموا ـ والأغلب أنهم لم يكونوا يحبون أن يتصوروا ـ أن نهراً من الدماء سيتدفق فى نهاية الأمر من قوانين ١٩٣٣ للتعقيم، إلى أوشفيتز وبوخنفالد. بعد صدور القانون بوقت

قصير أشار أحد موظفى جمعية اليوجينيا الأمريكية لبعض الصحف بأن سياسة هتلر للتعقيم تبين شجاعةً عظيمة وقيادة رائعة، بينما ردد مراقبون آخرون - من بينهم هافلوك إليس - تصريح لاندمان بأن برنامج النازى للتعقيم يخلو من أى محتوى عنصرى شائن. قال اليوجينيون الألمان، يغازلون زملاءهم الأمريكان، إنهم يَدينون كثيرا للسبق الأمريكى - مثل تقرير جوسنى وبوبنو عن برنامج كاليفورنيا. وفى عام ١٩٣٦ وافقت جامعة هايدلبرج على منح الدكتوراه الفخرية فى الطب لهارى لولين، وكان لايزال المتحمس للتعقيم والمسئول عن مكتب السجل اليوجينى بكولد سبرنج هاربور، لونج أيلاند. قَبِل لولين الدرجة وتسلمها من القنصلية الألمانية بقلب مدينة مانهاتن، وكتب إلى سلطات هَيْدلبرج قائلا إنه لايعتبر هذه الدرجة تكريما شخصيا فقط، وإنما هى أيضا "دليل على التفهم المشترك بين العلماء الألمان والأمريكان لطبيعة اليوجينيا".

* * *

لكن السياسات النازية البربرية قد أثارت فى النهاية رد فعل قوياً ضد اليوجينيا. وكان رد الفعل هذا - ربما بسبب قوته الخارقة - يحجب حقيقة تاريخية أعمق. كان العديد من المفكرين بين الجماهير البريطانية والأمريكية قد أدركوا بالفعل أن ثمة الكثير من الخطأ يكمن داخل يوجينيا الخط الأم. والحق أن ائتلافا قويا قد انقلب ضد حركة الخط الأم قبل وصول النازى إلى الحكم بزمان طويل. جاءت المعارضة من مصادر متباينة، منها العلمانى ومنها الدينى. من بين كبار المعارضين سنجد أعضاءً من حزبى الأحرار والعمال بانجلترا، ومن مؤيدى مبادىء الحرية بالولايات المتحدة، ومن رجال الاجتماع وعلماء الاجتماع. ومن بينهم أيضا أعضاء من جماعات صغيرة كانت لاتزال فى طريقها إلى العالم الأكاديمى. وكان من بين النقاد يوجينيون لم ينضموا أبدا إلى الخط الأم - من الراديكاليين عادة ومؤيدى حقوق المرأة - وبعض المرتدين عن الخط الأم. وبينهم كذلك كان بروتستانت من طوائف مختلفة، ويهود، وبصفة خاصة: كاثوليك.

كانت المعارضة الكاثوليكية ترتكز فكريا علي عقيدة الكنيسة بأن نظام الله فى خَلْقه قد جعل صفات الانسان الجسدية صفات ثانوية، فروحه هى الأسمى. فمن يعتبرهم اليوجينيون غير صالحين هم عند الكنيسة أبناء الله، حباهم أرواحا خالدة، ومنحهم حق الاحترام الواجب

لكل البشر. فى دراسة قام بها الأب توماس ج. جيرار لنقابة الاجتماعيين الكاثوليك، نجده يسمى العقائد اليوجينية الراديكالية "عودة كاملة إلى حياة الحيوان"، ونجده ينتقد صيَغَها الشائعة التى تقول إن الانسان - فى أصله وأساسه - حيوان بطبيعته وأن "تحسينه - فى أساسه إن لم يكن بأكمله - أمر يتعلق بالبلازما الجرثومية، واللبن ، والهواء النقى، والفنون الوجدانية، والشهادات المزخرفة (ذات القيمة اليوجينية)." أكدت الكنيسة على دور الحب والأخلاق الدينية فى إنجاب نسل ذى خصائص يوجينية، لاعلي كمال الأبوين جسديا وذهنيا. قال جيرار: "إن الكنيسة تؤكد أن السبب الجذرى للتدهور هو الخطيئة، وأن السبب الجذرى للتحسين هو الفضيلة". فإذا ماخشى الأبوان أن ينجبا نسلا معوقا وراثيا، فإن الكنيسة تصر على التعفف لاعلى منع الحمل، ذلك أن منع الحمل، "لايتسبب فقط فى قتل الشهوة فى عش الزوجية"، كما يقول جيرار، وإنما هو يؤدى إلى انتحار السلالة. ربطت السلطات الكاثوليكية بين اليوجينيا وبين الإباحية الحديثة التى تهدد كيان العائلات، وتهدد طاعة الزوجة لزوجها، وتهدد كبح الشهوة الجنسية بالإرادة الخلُقية. كشف الباب بيوس الحادى عشر مجموعة المعاصى الكاثوليكية فى منشور بابوى ظهر فى ٣١ ديسمبر ١٩٣٠، شجب فيه اليوجينيا، بجانب الطلاق، وتحديد النسل، والزواج العرفى، وتمجيد الشهوات الحيوانية فى الأفلام والصحافة والمسرح.

لم يوافق النقاد العلمانيون - إلا بالكاد - على كل اتهامات الكنيسة الشاملة، وإن كان ثمة الكثير منها قد استحق استحسانهم - لاسيما الهجوم على الاختزالية البيولوجية لعقيدة الخط الأم. رأى المُنَظّر البريطانى الليبرالى ل. ت. هوبهادس - بعد أن أزعجته تضمينات هذه الاختزالية بالنسبة للنساء - رأى أن من حق يوجينىّ "الخط الأم" أن يلفت النظر إلى ذبول العائلة داخل الطبقات الأكثر تعليما. "لكنه أكد خطأه "إذا أصر على التكاثر الكمى على حساب الحياة الكيفية، إذا عاد إلى فكرة أن عمل المرأة يقتصر على الحمل وتربية الأطفال". أما شخصية ستيفن ديدالوس عند جيمس جويس فقد كره - بعد أن تأمل مفاهيم الجمال - كره أن يعتبر أن "كل خصيصة جسدية يعشقها الرجال فى النساء إنما ترتبط ارتباطا مباشرا بوظيفة النساء فى نشر النوع". إن هذا يؤدى إلى اليوجينيا لا إلى الجمال، "وإلى القول بأنك قد عشقت خاصرة فينوس الرائعة لأنك اعتقدت أنها قد تنجب لك نسلا قوى البنية، وعشقت نهديها الكبيرين لأنك شعرت بأنها سترضع أبناءها أبناءك لبنا طيبا وفيرا".

أما النقاد ذوو النزعات الانسانية فقد وحّدوا بين عدوانية اليوجينية وبين استيائهم العام من تزايد سلطة العلم. أطلق ج. ك. تشيسترتون، في سنى ماقبل الحرب، وابلا من المقالات اللاذعة ضد ادعاءات يوجينيا الخط الأم، متهما أنصارها بأنهم تمكنوا من أن يجمعوا بين "قسوة القلب ورقة العقل"، وبأنهم حولوا مايعتبر عادة أعمالا تستحق الثناء (كالزواج بالمرضى) إلى "جرائم اجتماعية". جُمعت هذه المقالات في أوائل العشرينات ـ تقريبا فى الوقت الذى تحول فيه تشيسترتون إلى ا لكاثوليكية ـ في كتاب عنوانه "اليوجينيا، وشرور أخرى"، ولقد أصبح هذا الكتاب سلاحا رئيسيا فى ترسانة الأسلحة ضد اليوجينية على جانبى الأطلنطى. ربط تشيسرتون بين اليوجينية والعسكرية البروسية الاستبدادية فلها "نفس العلم الفاسد، نفس البيروقراطية المستأسدة، نفس الارهاب يقوم به علماء من الدرجة العاشرة قادوا الإمبراطورية الألمانية إلى انتصاراتها الأخيرة الهائلة". كان يرى أن العلم يهدف ـ من زمان ـ إلى الاستبداد. ومن خلال اليوجينيا فإنه يرمى إلى أن "يصل الى المناطق السرية والمقدسة للحرية الشخصية، حيث لم يسبق أن فَكّر إنسان، ولاسيما إلى محراب الجنس". ولقد تنبأ بأن اليوجينيا قد تعنى الزواج القسرى عن طريق الشرطة.

عندما سنت الولايات المختلفة قوانين الزواج اليوجينية، سخر المحللون المعمليون من أن الاجراءات ـ فى مثل تشريع التحريم ـ ستكون فى معظمها غير قابلة للتطبيق بالقوة ـ إذ يستطيع الشخص أن يتجنب قوانين الزواج فى ولاية بالزواج فى أخرى. تنبأت جريدة "الأم" بأن ماسيحدث هو "التهرب... القسم الكاذب أمام المحاكم... سوء الادارة" ثم فى النهاية "الأعمال اللاأخلاقية". قد تكون مقالات تشسترتون عالية النبرة، وقد يكون المحللون القانونيون عمليين، لكن المهم هو أن الشعور العام كان يرى أن التدخل اليوجينى فى الزواج أو فى الانجاب هو انتهاك خطير لامبرر له للحرية المدنية. أشار العديد من النقاد إلى أن حركة يوجينيا الخط الأم لاتثق فى الديمقراطية، وأشاروا الى ادعاءاتها بأن البشر لم يخلقوا متساوين ولاحتى فى الحقوق السياسية، وإلى تهديدها بإنشاء نظام حكومى مغلق على نفسه. توقع برتراند راصل أن ينتهى الأمر بأن تعتبر المعارضة للحكومة "دليلا على البلاهة. فيعقّم كلُّ ثائر". حذرت كلارنس دارو فى مقال لها عام ١٩٢٦ من أنه إذا ماتقلد اليوجينيون السلطة "فسيقوم ذوو السلطان ـ لامناص ـ بتوجيه التوالد على هواهم... وهذا يعنى فى الوقت الحاضر أن يخلق رجال الصناعة سلالةً توافق خيالاتهم، وهو يعنى فى أى وقت أن يجرى توجيه التوالد ـ في الانسان كما فى الحيوان ـ لخدمة أهداف القَوِىّ غير الذكى".

كان سلاح الهجوم ضد اليوجينيا هو المبدأ. ولقد عززته خبرة الاجتماعيين الذين واجهوا أهداف اليوجينيا الانسانية بإقامة المؤسسات الخيرية، ومساكن الإيواء، ودور الصحة العقلية. لاشك أن أفضل مثال هو الكاهن وليام أ. دافينبورت، شقيق تشارلس دافينبورت، الذى اعتمد على ماكتسبه من خبرة كمؤسس ورئيس لجمعية الاستيطان الإيطالى لنقابة المجاورة في بروكلين نيويورك. صحيح أنه كان يميل - مثل الكثيرين غيره من السكان المحليين فى ذلك الوقت - إلى أن يربط الخصائص السلوكية بالمجاميع العرقية (مثل الميل إلى العنف أو السُكْر)، لكن خبرته قد أشارت بأن من يعرفه من الإيطاليين لايستحقون هذه الانتقادات البيولوجية التى أسبغتها عليهم اليوجينيا. قال الكاهن دافينبورت لأخيه "لقد قابلت مرارا وتكرارا شبابا حَكَم عليهم المختصون (المصلحون) بأنهم ضعاف ذهنيا... ثم اتضح فيما بعد أن لديهم قدرات ممتازة فى علاقاتهم المنزلية وفى التزاماتهم الاجتماعية، بل - وكثيرا - فى قدرتهم على تكسب المال والحفاظ عليه... إننى شخصيا أعرف نصف دستة من مهربى المسكرات لايستطيعون مقاومة إغراء المال، ولكنهم - وبصورة لايمكن انكارها - يقاومون اغراء تبديده بسرعة".

استمد المبدأ القوةَ أيضا من التهديد اليوجينى للجماعات ذات الدخل المنخفض. شجب علماء اللاهوت الكاثوليك اليوجينيا، ليس فقط لأنهم قد وجدوها تعارض القوانين الكنسية، وإنما لأن فقراء المهاجرين يشكلون نسبة كبيرة من المجتمع فى ليفربول والطرف الشرقى من لندن، وفى مدينة نيويورك، وبوسطون وفلادلفيا وشيكاغو. وإذا ماوجدنا علماء اللاهوت الكاثوليك يهاجمون اعتناق اليوجينيا لفكرة تنظيم النسل، فإن هذا يرجع جزئيا إلى أن السكرتير العام للمؤتمر القومى لرعاية الكاثوليك، ومعه الأب جون ج. بيرك، قد ظنا أن مؤيديها "يشجعون أن تكون الطبقات الدنيا أقل إنجابا بسبب الأحوال الاجتماعية، ويؤمنون بأنه من الممكن تخفيض وفيات الأطفال (الناتجة عن الحاجة للرعاية وعن انتشار الجهل والمرض) ليس عن طريق تحسين الأحوال الاجتماعية وكبح مَنْ يستغل الفقراء، وإنما عن تكييف عادات هذه الطبقات بحيث تتلاءم مع ظروفهم". أما المنشقون فقد كانت لهم وجهة نظر مشبوبة بالعواطف تقول إن الاهتمام بتفوق البلازما الجرثومية القومية فى المستقبل، قبل النظر فى الحاجات الانسانية للمحرومين الحاليين، هو أمر شائن من الناحية الأخلاقية. رأى المصلحون الاجتماعيون بناء على خبرتهم القاسية أن مايلزم وقفه هو التدهور الاجتماعى لا العرقى، وأن مايلزم تعزيزه هو التحسين الاجتماعى لا العرقى.

وجد المبدأ أيضا التدعيمَ فى تلك الاكتشافات الحديثة للعلوم الاجتماعية المختلفة ـ لاسيما الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا وعلم النفس ـ إذ كانت تتجه بطبيعتها في مسار مضاد لليوجينيا، دون الانتباه خاصة إليها. ومع ذلك كان على المبدأ أن يمضى سنينا دون دعم من علم الوراثة، ذلك أن الوراثيين ـ البريطان كما الأمريكان ـ كانوا إما واقعين فى شرك عقيدة الخط الأم، أو كانوا راغبين عن إغضاب زملائهم المعضدين لليوجينيا ـ فى مجتمع علمى يزعم عدم اهتمامه بالسياسة. علي أن عددا متزايدا قد أقلقه أن يجد يوجينيا الخط الأم تُلَوّث مشروع علم الوراثة. ثمة نكهة كانت تكتنف الكتابات اليوجينية ـ باهتمامها بالجنسانية وصحة الطفل وحياة الأسرة ـ نكهة علم سوقى مستهجن. كما رأى آخرون أن يوجينيا الخط الأم كريهة أخلاقيا أو اجتماعيا. لكن الأهم من هذا بالنسبة لمعظم العلماء هو أن الكثير مما أُطلق عليه اسم أبحاث يوجينية كان يتسم بالاهمال فى المنهج والشواهد والاستنتاج. كانت هناك فى الواقع هوة تتسع مابين الادعاءات العلمية الرئيسية لليوجينيا وبين نتائج علم الوراثة الحديث. وبتقدم علم الوراثة فى الثلث الأول من القرن، أدرك العاملون بالتدريج، وعلى أساس علمى، أنهم ـ كما قال وليام أ. كاسل عالم الوراثة بهارفارد ـ لايستطيعون بموالاة اليوجينيا أكثر من أن "يجعلوا من أنفسهم أضحوكة".

فى غضون الحرب العالمية الأولى بدأ عدد من الوراثيين يتنصلون من يوجينيا الخط الأم فيرفضون العمل فى المنظمات اليوجينية، ويعترضون على الاجتماعات التى تربط اليوجينيا بالوراثة، ويصرون على أن تُحجم مجلات الوراثة عن نشر المواضيع اليوجينية. استقال توماس هنط مورجان من جمعية المربين الأمريكان ذات الصلة باليوجينيا مستنكرا مجلتها، بصورة شخصية، لأنها غير جديدرة بالثقة وتنشر "تعبيرات طائشة". تشكك إدوين جرانت كونكلين ـ عالم الأجنة بجامعة برينستون ـ فى الطبعات المتعددة من كتابه "الوراثة والبيئة فى تطور الانسان"، تشكك فى ادعاءات الخط الأم المتهورة. أما الوراثى هيرمان ج. موللر، الاشتراكى الصريح، فقد شجب عقيدة الخط الأم فى نفس المؤتمر الدولى الثالث لليوجينيا. فى مقال بمجلة "أميريكان ميركورى" بعدد نوفمبر ١٩٢٧ هاجم رايموند بيرل ـ أستاذ البيومترى والاحصاءات الحيوية فى جون هوبكنز، والقريب الحميم إلى دائرة مينيكين المعارضة للمؤسسات التقليدية ـ هاجم "التميز البيولوجى" مؤكدا أن اليوجينيا قد غدت "إلى حد كبير مزيجا مشوشا فجا بلا أساس، من السوسيولوجيا والاقتصاد والأنثروبولوجيا والوراثة،

مزيجا يمتلىء بالدعاوى العاطفية لتحيزات طبقية وعِرْقية، تُعرض كما لو كانت علما، ليقبلها الجمهور، بكل أسف، كما هى دون تفكير.

* * *

أما أهم العلماء الذين قاموا بالهجوم على يوجينيا الخط الأم والذين كانت مقالاتهم النقدية هى الأقوى والأبعد أثرا، فهم البيولوجيون البريطان ج. ب. س. هالدين وجوليان هكسلى ولانسلوت هوجبين، مع زميلهم الأمريكى هيربرت س. جيننجز. كان هالدين أستاذا للوراثة، ثم للبيومترى، فى كلية الجامعة بلندن، وكان هكسلى رئيسا لجمعية علم الحيوان بلندن، وكان هوجبين أستاذ البيولوجيا الاجتماعية في كلية الاقتصاد بلندن، أما جيننجز فكان أستاذ علم الحيوان فى جونز هوبكنز. كانوا جميعا من مؤيدى النمط الجديد فى البيولوجيا ـ التجريبية، وتفسير ظواهر الحياة بلغة الفيزياء والكيمياء، وإخضاع المشاكل البيولوجية، حيثما أمكن، للتحليل الرياضى. قال هالدين "إن أوقية جَبْر خير من طن جدل شفهى". قدم الأربعة جميعا مساهمات بارزة ـ كُلٌّ بتأكيد مختلف ـ داخل نمط التطبيق الجديد، فى مجالات الوراثة وبيولوجيا التطور. من بين المنجزات البحثية لهكسلى نظرياته عن تطور السلوك في الطيور، لاسيما الطقوس المرتبطة بالغزل والتزاوج. أوضح جيننجز أن التكاثر اللاجنسى فى البرامسيوم ينتج نسلا متماثلا من الناحية الوراثية، ثم أنه استخدم نتائجه فى تحديد دور كل من الوراثة والبيئة فى تطور هذا الكائن وسلوكه. تراوحت أعمال هوجبين مابين الوراثة السيتولوجية ووراثة الذكاء. أما هالدين، الباحث الفنان، فقد راد مجالات الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية بجانب البيومترى والوراثة، والأهم أنه كان أحد ثلاثة العلماء (الآخران هما رونالد فيشر الإنجليزى وسيوال رايت الأمريكى) الذين استخدموا الرياضة فى توطيد نظرية التطور، وهذا هو الانجاز الكبير الذى لخصه هكسلى فى كتابه الكلاسيكى "التطور: التوليف الحديث" الذى ظهر عام ١٩٤٢.

كان الجناح البريطانى يرتبط بعلاقات شخصية: كان هالدين وهكسلى صديقين من أيام الدراسة في إيتون. وانضم إليهما هوجبين عام ١٩٢٢ فى جامعة إدنبره للمساعدة في تأسيس "مجلة البيولوجيا التجريبية". أما جيننجز، الذى أصبح أستاذا فى عمر متأخر، فقد كان العجوز فى قيادة الحملة ضد الخط الأم. كان فى السادسة والأربعين عندما اندلعت الحرب

العالمية الأولى، عندما كان الآخرون لايزالون يدرسون بالجامعة أو يستقرون فى أولى وظائفهم. كما أنه كان يعرف جيدا الشخصيات الأقل شأنا التى تهاجم اليوجينيا فى أمريكا، لاسيما رايموند بيرل، زميله فى جونز هوبكنز. كان المحيط الأطلنطى يفصل معظم الوقت بين مجموعتى البيولوجيين البريطان والأمريكان، إلا أن هكسلى ربطهما مبكرا، إذ كان قد قام بالتدريس فى الفترة مابين عامى ١٩١٤ و ١٩١٦ فى معهد رايس فى هوستون مع هيرمان موللر. حصل موللر على وظيفة بهذا المعهد بعد الانتهاء من متطلبات الدكتوراه مع توماس هَنْط مورجان.

أدرك هالدين وهوجبين وهكسلى وجينجز الكثير فى علم الوراثة، غير أن هذا لم يكن على الاطلاق السبب فى تحولهم كرجل واحد ضد عقائد يوجينيا الخط الأم. لكن المؤكد أن هوجبين قد عارض حركة الخط الأم منذ بدء عمله ودون موارية، إذ اعتبرها مرادفا "لعبادة الأسلاف، ومعاداة السامية، والتحيز للّون، ومعارضة الحركة النسائية، والتباهى، وتعويق التقدم التعليمى"، أما هالدين الذى انضم في صباه إلى الجمعية اليوجينية، فقد تعاطف لفترة مع بعض مناحى العقيدة، لاسيما إنكارها للطبقات الدنيا وتلهفها على خفض معدل التكاثر فيها، بينما اقترح هكسلى فى بداية عصر الكساد أن تُربَط إعانة العاطلين من الذكور بتعهدهم بألا ينجبوا أكثر مما لديهم. أما جينجز، وكان تلميذا لتشارلس ب. دافينبورت (ومؤجرا في مسكنه) فقد كان ينتمى إلى جماعات تميل إلى الخط الأم. غير أن مجال علم الوراثة الذى كان يتنامى بسرعة قد ساعد فى تحول الرجال الأربعة ضد يوجينيا الخط الأم، كما ساعدت أيضا عوامل الجذور الاجتماعية، والمزاج، والمعتقدات السياسية الاجتماعية.

كان هالدين وهكسلى سليلى الأرستقراطية الانجليزية المثقفة. دخل هكسلى (الذى يتذكر جلوسه على ركبتى جده توماس هنرى) دخل مجال العلم بطبيعة الأمور. ومثله أيضا هالدين، الذى تعلم الوراثة المندلية وهو طفل بتربية خنازير غينيا. علّمه والده، الفسيولوجى بأكسفورد الذى عمل كثيرا كمستشار للحكومة ورجال الصناعة، علّمه ليكون مساعدا له. (كان هالدين يوما فى منجم مع أبيه عندما عرف عن أثر غاز المناجم، إذ وقف بناءً علي أوامر والده وأخذ يتلو خطابا شكسبيريا، حتى انهار يلهث على الأرض حيث الهواء الطبيعى). ترعرع هوجبين على الشاطىء الجنوبى لانجلترا حيث يُلقى والده - رئيس أخوية بلايموث الدينية - مواعظه النارية على شاطىء بورتسموث. كان والده يؤم الصلاة اليومية للعائلة، ويحرم لعب

"الكوتشينة" وشرب الخمور والأفكار الخطرة - ومنها الأفكار العلمية. لكن والدته كانت تحلم بأن يصبح ابنها طبيبا مبشرا، فسُمح له بقراءة الكتب فى علمى النبات والحيوان. فلما انتقلت العائلة إلى لندن ودخل مدرسة مدنية، لم يعد ثمة مايقمع شهيته الذهنية للتعلم الذاتى. شب جيننجز فى تونيكا إلينوى، وهذه مدينة صغيرة بها ثلاث كنائس ولاحانة. ولكنه دخل العلم - مثل هالدين وهكسلى - بحق المولد. أسس والده الطبيب المعدم جمعية أدبية محلية وارتد عن عقيدة أسلافه البروتستنتية، وأطلق على ابنه بيولوجى المستقبل اسم هربرت سبنسر، تيمنا بسبنسر، كما ضمن اسم ابنه الآخر إسم داروين، ولقن ولديه تعاليم الدين الجديد - التطور.

عندما كان هوجبين فى تونيكا لم يكن يقرأ فى التاريخ الطبيعى، ولكنه عشق شكسبير، ولما وصل هارفارد ابتهج برؤية الابداعات المعمارية التي يمكن للمرء أن يلحظها مباشرة، وبملاحقة الأوبرات (كان يحب فاجنر) والمسرحيات والمحاضرات. كان هوجبين وهكسلى متعددى الثقافة، إنما من نوع متواضع، لكن هالدين كان يفوق الجميع. فعندما انتهى من دراسته في إيتون كان يقرأ اللاتينية واليونانية والفرنسية والألمانية، وكانت لديه دراية طيبة بالتاريخ والسياسة المعاصرة، وكان يعرف من الكيمياء والبيولوجيا مايكفى للقيام بالبحوث. كان طويلاً قوىً البنية يزن مائتى رطل من الشجاعة البدنية التى لاتقهر. وكثيرا ماكان يُجرى أبحاثا فسيولوجية مرهقة علي نفسه، ومن بينها أنه شرب حامض الأيدروكلوريك ليختبر أثره على النشاط الجسدى، وأنه كان يقوم بتدريبات جسدية شاقة ليقيس التغير فى ضغط ثانى أكسيد الكربون فى رئتيه. قال عنه وراثى فرنسى مرتاع "إنه ليس بشرا، إنه احدى قوى الطبيعة!".

تزوج هوجبين بعد الحرب العالمية الأولى بوقت قصير من الاقتصادية نصيرة الحركة النسائية إنيد تشارلس، وجعل من تحرير النساء جزءا من عقيدته الأساسية. تعرف هالدين على هكسلى فى بلومسبيرى ، وكان من بين أصدقائهما أوتولين موريل، ليتون ستراشى، د. هـ. لورنس، برتراند راصل، إذا لم نذكر ألدُوز، شقيق جوليان. أصرا على اعتبار الانسجام الجنسى أمرا أساسيا للزواج السعيد، وعلى أن للمرأة الحق فى الإشباع الجنسى، بالضبط مثل الرجل، وأنه ليس ثمة مايشين فى المتعة الجنسية منفصلة عن الإنجاب. ومن الطبيعى أن يُقِرًا بالطلاق وتنظم النسل. قام هسكلى بحملة نشطة تشجع منع الحمل، ليستحق الإدانة من اللورد ريث لأنه لوث أثير محطة الإذاعة البريطانية بمناقشة هذا الموضوع على الهواء.

على أن هالدين وهكسلى وهوجبين قد سقطوا مابين الأخلاقيات المتغلغلة في نشأتهم الفيكتورية وبين مبادىء عقيدتهم المتمردة المقنَّعة. عانى هكسلى من انهيارات عصبية متكررة - أصابته نوبة من هذه بعد شهر العسل مباشرة - وكان يعزوها إلي "صراع داخلى لم يُحَل عن موضوع الجنس". أما الزوجان هوجبين فقد حاولا أن ينظما حياتهما الزوجية بحيث تتمكن الزوجة - وكانت ألمعيةً فى الرياضيات - من موالاة لهفتها المحببة كاحصائية، لكنهما رزقا بأربعة أطفال، وجاء معهم بالطبع التمييز الطبيعى لدور الجنسين في الحياة. (كثيرا ماتباهى هوجبين بخصوبة عائلته أمام الزواج العقيم للكثير من اليوجينيين، الذين أسماهم "أصحابَ الدخل الوفير البُتْر - بوربونيى القرن العشرين الذين لايساوون شيئا ولم ينجبوا طفلا"). في قطعة لم تنشر من سيرته الذاتية، أجهد هالدين نفسه كى يذكر أنه لم ينضم إلى جماعة المنحرفين جنسيا فى إيتون، وأنه ظل قلقا من الناحية الجنسية لوقت طويل بعد ذلك. لكن رونالد كلارك - الذى كتب سيرة هالدين الذاتية - قد وجد فيه "خجلا من النساء لم يتمكن أبدا من قهره، ومركبَ نقص كان يحاول أن يخفيه بفسوق غير متحفظ". دخل عليه طالب ذات مرة فى مسكنه بالجامعة ليتلقي عنه أول دروسه، فطلب إليه هالدين أن يجلس بينما يقضى حاجته والمبولة في يده. كانت كفاءته محدودة في التعامل مع الأجهزة العلمية - شأن الكثير ممن يميلون إلى التنظير من العلماء - ولقد يقول لطالباته "إننى أدعى أننى ضليع فى استخدام الجهاز الأبوى". علق يوما في مأدبة عشاء خاصة بكيمبريدج قائلا إنه "لم يشترك أبدا وبحق فى لواط بهيمي"، وصاح ذات مرة، داخل أوتوبيس بجلاسجو مزدحم بالذاهبين إلى الكنيسة، قائلا "هذا هو المكان الذى كنت أرتكب فيه الفحشاء وأنا صبى".

لم يكن ثمة تبجح جنسى لافكتورى لدى جيننجز. فى أيام شبابه قال لسيدة شابة كانت معه في قبو بارد يتناولان الفراولة والسكر إنه من الخطر أن يقرأ المرء كتاب "الأحلام" لأوليف شراينر. تحمل بشجاعة هو وخطيبته - مارى باريدج، قابلها بينما كانت تدرس البيولوجيا في ميتشجان - تحمُّل فترة خطوبة امتدت بضع سنين حتى سمحت لهما الظروف العائلية والمادية بالزواج. وفى هارفارد - حيث حصل علي الدكتوراه - وجد أن ثمة مايضايق فى طالبة للدراسات العليا كانت باستمرار تعزو كل نكسة تحدث لها إلى اضطهاد السلطات الجامعية للنساء. "إنها تسبب فى الحق ضررا بالغا لقضية المرأة، لأن الناس سيقولون إنه إذا ماكانت هذه هى الطريقة التى ستعمل بها النساء فى العلم أو الجامعة، فلاحاجة بنا إليهن". اهتمت

مارى باريدج جيننجز بأمور أطفالها، وزوجها وعمله، تساعده في بحوثه وترسم الرسومات لبعض كتبه. فى عمل من أعماله الكبيرة ناقش جيننجز حرية العلاقات الجنسية واستنبط أن الزواج الأحادى (الزواج مرة واحدة في العمر) ربما كان أفضل الطرق لتوفير حاجات الانسان البيولوجية على المدى التطورى البعيد.

ولد لانسلوت هوجبين لعائلة متطرفة التدين أبقته في صباه مهمَلا، فظل طول عمره غريبا. فى سنى دراسته بكيمبريدج كانت المسيحية الإنجيلية تتحول إلى راديكالية اشتراكية متقدة تعارض الامبريالية. عمل هوجبين أثناء الحرب العالمية الأولى فى وحدة الإسعاف، ثم تنازل عن حقه كطالب طب فى الإعفاء من التجنيد، ورفض بوحى من ضميره دعوة الالتحاق بالجيش فأودع سجن ويرمووود سكربس. وفى لندن مابعد الحرب بذل الوقت والطاقة لجماعات الاشتراكية والعمل، وكان من بينها اتحاد العمال الذى أسسته صديقته وجارته سيلفيا بانكهيرست.

كان ج. ب. س. هالدين على عسكه، فقد تطوع في فرقة الحرس الأسود الأسكتلندى بعد أيام من سارايفو، ومضي إلى الخنادق ليصيبه الانزعاج عندما اكتشف أنه يحب القتل. عرض حياته للخطر بدرجة تفوق متطلبات واجبه، وجرح مرتين، وأثنى عليه السير دوجلاس هيرد لأنه "أشجع وأقذر الضباط فى جيشى". اكتشف هالدين بمخالطة الجنود العاديين أن الطبقات الدنيا من المجتمع تستحق إعادة النظر، رغم كل شيء. تذمر عام ١٩٢٤ من أن النظرية الوراثية تُستخدم فى بريطانيا "لتدعيم الأفكار السياسية لليمين المتطرف"، كما يستخدمها في أمريكا ألد أعداء الحرية". ومثل الكثيرين من مثقفى جيله، عاد من الحرب وقد خاب أمله لسقوط الأهداف التحررية، ولاسيما الليبرالية المتأصلة لعائلة هالدين. تحول إلى اشتراكية هامشية فظل متعاطفا مع الأمبريالية، مناصرا للمستعمرين، وخاملا مطلعا.

أما جوليان هكسلى، وكانت سياسته قد اتجهت إلى سياسة وسطية فاترة، فقد انحرف إلى اليسار بسبب الكساد الاقتصادى والتهديد الفاشى، فأكد موقفه أكثر وأكثر عندما اتجه إلى أسبانيا كمستشار للدفاع المدنى للقوات الجمهورية. ولما كان هالدين يشك فى قدرة حكومة المحافظين أو العمال في الوقوف أمام خطر النازى، فقد تحول ليصبح ماركسيا ملتزما، وكان أن تبع زوجته ـ الصحفية شارلوت بيرغس ـ فانضم إلى الحزب الشيوعى. لم

يسترح هوجبين للمسلَّمات الماركسية والقمع السوفييتى فالتزم براديكالية مستقلة فطرية. أثار نقدُه الصريح لروسيا السوفيتية الاستنكار بين الراديكاليين البريطان، ومنهم زملاؤه فى مدرسة لندن للاقتصاد، لكنه كان في نظر الجميع ـ مثل هالدين وهسكلى ـ عضوا بارزا فى اليسار العلمى بالدولة.

عرِف جيننجز التجربة المرة للفقر المدقع الدائم معرفةً مباشرة، ووجد صورة اتجاهاته السياسية الاقتصادية فى كتاب "لوعاد المسيح إلى شيكاغو" لمؤلفه الصحفى وليام ستيد. كان هذا الكتاب المؤثر قد استفز المحافظين بسؤاله عما يقول المسيح فى موعظة الجبل عن المؤسسة المرتزقة للمترددين على الكنيسة. استمع جيننجز في تسعينات القرن الماضى إلى موعظة ـ يقول إنها أفضل ماسمعه من مواعظ ـ: "إن الذهاب إلى القوقاز أو إلى صناديق الانتخاب لهو واجب أهم من الذهاب إلى الكنيسة أو الاجتماعات الدينية، إن المسيح يهتم بما تفعله الأحزاب السياسية فى هذا البلد أكثر من اهتمامه بما تفعله كنائسها". لم يكن جيننجز أبدا بالسياسى النشط، ولم يصبح أبدا السياسى الواعى مثلما كان هالدين أو هوجبين أو هكسلى. ورغم ذلك فقد غدا فى تسعينات القرن الماضى متعاطفا مع حزب الشعب الأمريكى، ثم اتجه بقوة في أواخر حياته إلى الناحية التقدمية من المجال السياسى.

دفعت "الليبرالية ـ إلى ـ الراديكالية" السياسية، الأربعةَ جميعا إلى إدراك أن يوجينيا الخط الأم إنما تعبر عن التحيز العرقى والطبقى. حجب هوجبين اقتناعه بهذا خلال عمله فى أواخر العشرينات كأستاذ بجامعة رأس الرجاء الصالح فى جنوب أفريقا. فلما عاد منها إلى لندن أقنع هكسلى بأن آراء الخط الأم التى يعتنقها بشأن العاطلين قد ساعدت النازية وحرضت عليها. ومن خلال عدسة الاشتراكية اكتشف هالدين ـ وأزعجه ـ أن يجد مُخَبَّأً فى عقيدة الخط الأم افتراضات سياسية اجتماعية تتعارض مع آرائه. لم ين قد عرف الكثير عن وراثة الانسان، وكما قال هالدين "إن مايقدمه العلم من تبرير لما يجرى فى أمريكا باسم اليوجينيا، لايضارعه إلا ماقدمه الانجيل من تبرير لاجراءات محاكم التفتيش". كان البيولوجيون البريطان الثلاثة جميعا، أيضا عصريين صرحاء بالنسبة للقضايا المتعلقة بحقوق المرأة، وكانوا علي خلاف مع القمع الجنسى الذى تقول به يوجينيا الخط الأم. وبينما كان جيننجز تقليديا في مواقفه الخاصة نحو المرأة والجنس والزواج، سنجده متسامحا مع المواقف غير التقليدية تجاه غير هذه من قضايا.

فى سنى مابين الحربين كان هؤلاء الأربعة بين كبار البيولوجيين الشعبيين - كتبوا الكتب ودبجوا المقالات لرجل الشارع عن محتوى وفحوى منجزات التقدم فى علوم الحياة. كانت كتاباتهم تُطبع وتقرأ على جانبى الأطلنطى. كتب هوجبين بعنف لايلين، وكتب هكسلى بوضوح هادىء، وكتب جينينجز بصراحة قوية، وكتب هالدين بسخرية ووقاحة. (قال هالدين إن آينشتين هو "أعظم اليهود منذ عهد المسيح"، وجازف وقال إن جين النزف الدموى فى سلالة الملكة فيكتوريا قد ظهر على أغلب الظن عن طفرة "فى نواة خلية بخصية من خصيتى إدوارد دوق كِنْت عام ١٨١٨"). فى كتاب "الأساس البيولوجى لطبيعة الانسان" الصادر عام ١٩٣٠، والذى حصل على جائزة "مجلة الآباء" تلك السنة كأفضل كتاب فى الوراثة - كتب جيننجز أنه يبدو "أن قدرا كبيرا من الأفكار الخاطئة" يدور بين الناس "تحت رداء المبادىء البيولوجية الملائمة للأمور البشرية... وتبدو أكثر هذه الأفكار شيوعا فى محاولات تطبيق نتائج البحث العلمى الوراثى على الاصلاحات الاجتماعية". من بين هذه الأفكار الخاطئة - فى رأى جيننجز - فكرة أن ا ليوجينيا "تتطلب بنية أرستقراطية للمجتمع"، ثم - فى رأى هكسلى - فرضاً "بأن الطبقات الأثرى تتميز يوجينيا على جماهير الحرفيين والعمال". اشتكى هوجبين عام ١٩٣٠ فى كتابه "طبيعة المادة الحية" من أن اليوجينيين قد أرهقوا اليوجينيا الاجتماعية" بمعجم من المصطلحات لامكان له فى علم محايد أخلاقيا". وفي فترة مابين الحربين أخذ الأربعة - هالدين، هكسلى، هوجبين، جيننجز - مع زملائهم البيولوجيين الشعبيين، أخذوا على عاتقهم أن يفضحوا هذه الأفكار الخاطئة، أن يطهروا المعجم، وأن ينظفوا هدف عملهم. ولقد اجتمعت المعرفة التى حققوها في أحاديثهم العامة مع معارضة رجل الشارع لتشكلا قضية ساخنة ذات فاعلية متزايدة، ضد سلطة يوجينيا الخط الأم.